العمارتان العراقية والفارسية
مدخل مقارن في الريادة والإقتباس والتواشج

(٢-١)

د. علي ثويني
معماري وباحث - استوكهولم

يلمس المتتبع لفوضى المفاهيم التي تعم الثقافة المعمارية الكثير من الحشو والتلفيق والمبالغة ذهب بعيدا في تكريس المركزية الغربية،وإسقط في حلكة أزمنة الدعة الحضارية الكثير من المسوغات "الأقوامية" وتفاسير التاريخ الجزافية على حيثيات البناء والفنون. ولا ضير في الأمر حينما يتعلق الأمر بهم، لكن المشكلة تكمن في أصحابنا ممن جعلها مسلمات ومقدسات،وأسبغوا عليها صفة الثابت وتعاملوا معها بسلفية نأت عن اللبابة.

أصبح بديهيا منذ عشرينات القرن العشرين أن حضارات العراق المتتالية تشكل الريادة في الكثير من جوانب النتاج الفكري والفني. أما العمارة العراقية فتعتبر من أثرى المدارس المعمارية في الدنيا، وربما رائدة لأكثر النتاج المعماري العالمي رسوخا وثراءا،حينما تسنى لها أن تستحدث في العمارة الرسوبية جل العناصر المعمارية، ابتداءا من عناصر الهياكل والعقادة بالعقد والقبو والقبة حتى فنون الجص والفسيفساء. والسبب يعود إلى فقرها لمواد بناء مقاومة، من حجر وخشب غابي، جعل منها حقلا يانعا لسطوة الروح والعقل وفذلكة الخيال والتجريب،والتي عاضدها رخاء ووفرة غلة ومنتج مادي. وبذلك تصاعدت وأزدهرت في سنة التطور من خلال عمليات الصقل والتهذيب والتجريب.

ريادات

وترجعنا البحوث في سياق الريادات الى الحضارات القبل تاريخية من (جرموية وسامرائية وحلفية وعبيدية) ثم تاريخية مدونة من سومرية وأكدية وبابلية وآشورية،والتي أستثنى الفرس منها ردحا إبان دولهم الثلاث (الأخمينية والفرثية والساسانية)،لكنها أستدركت وأسترسلت لاحقا في فنون وعمائر الإسلام.وهنا نرصد وبالدليل الساطع أن ثمة ثابت معماري بين كل الحضارات العراقية ولم تحدث قطيعة بينها البته، فتجد أن العبيدية أورثت سومر، وسومر لأكد وأكد لبابل وآشور وهؤلاء لأرام،حتى أن المعاين لسامراء الإسلامية اليوم يجدها إسترسال من صلب بابل بنيت بعد ثلاثة آلاف عام.

الحضارة الاقدم

لقد أدعى الغربيون بأن الحضارة المصرية أقدم من العراقية على خلفية غزل مبطن في كون مصر متوسطية الموقع وسطوتها على اليونان التي تشبثوا بمرجعيتها برغم وهنه. بيد أن الأمر لم يستمر كثيرا حيث أثبتت الحفريات منذ عشرينات القرن العشرين بأن الحضارة والعمارة العراقية هي الأقدم قاطبة وأن (شنعار) التوراتية هي سومر،وهي ليست بابل الأولى بل قاعدة لكل ما تلاها من حضارات بعدما أدعى المستشرق الفرنسي اليهودي (جوزيف هاليفي) ١٨٢٧، ١٩١٧م) قبل رحيله،وهو صاحب الفتوح في حضارات مصر واليمن، بأن لاوجود لعمارة أو حضارة سومرية وإنما هي حضارة بابلية مموهة،كي لا يدحض الفروق والمفاهيم بين كشوف الحفريات وأساطير التوراة (العهد القديم). لكن أثبتت الفحوص تباعا بأن تأسيس الأسرة الملكية الأولى في مصر سنة ٢٤٠٠ ق.م يؤرخ لقرب نهاية سومر، وأن المقابر المكتشفة في أور والتي تعود الى نفس الحقبة تمثل خاتمة دور يقدره المؤرخون ببداية الطوفان ويمتد ألف عام ونيف قبل ذلك العهد .وأكدت الحفريات أن مدينة (كيش) الواقعة قرب بابل، يرجع تأريخ ما اكتشف بها من معابد وقصور الى حوالي ٣١٠٠ ق.م.

ثقافة معمارية مشتركة

وتعود المستوطنات السابقة للتاريخ الذي يبدأ بسومر في جنوب العراق الى أكثر من ألف عام قبل ذلك أي حوالي عام ٤٥٠٠ ق.م وأمتدت حتى نشوء المدن والكتابة حوالي عام ٣٥٠٠ ق. م،وأطلق عليها اسم الفترة " العبيدية " نسبة الى بلدة العبيد الواقعة على بعد ٨,٥ كم من اور، والتي نقبت فيها بعثة إنكليزية في أواخر العشرينات من القرن العشرين. والخاصية الأساسية لها أنها وحدت لاول مرة سواء في شمال او في جنوب العراق ثقافة مشتركة ضمت كل سكان المنطقة. وهنا تم العثور على منابع الكثير من المنجزات التي حصلت في الحضارة والعمارة السومرية. فالمسكن "العبيدي" كان يبنى من القصب المطلي بلياسة الطين، وقد وجدت في (العقير) بيوت طينية متينة مبنية من الآجر (اللبن المربع) وأحتوت أبواب من الخشب او القصب، وكانت السطوح منبسطة. وكان يوجد في كل بيت ما بين أربع وست حجرات مخططة بفكر مسبق، وإحدى الغرف يكون مطبخ وموقد طيني.وأعطت حفريات قرية "اريدو" (أبي شهرين) أعوام ١٩٤٦-١٩٤٩م والتي تمتد حول (زقورة) نتائج هامة لكونها واحدة من اقدم مدن العراق القديم.

اقدم زقوة ايرانية

وبالمقارنة فأن أقدم مدينة أنشأت في الهضبة الإيرانية هي اكبتان الواقعة على تخوم همدان الحالية(٣٣٦كلم جنوب طهران)،وتاريخها يعود الى سنة ٨٠٠ ق.م ويعتبرها مؤرخ عمارة فارس (أرثر بوب) بأنها الأولى التي استعملت مبادئ تخطيطية عمرانية ومعمارية. اما أقدم زقورة في إيران،فأنها تقع في الأحواز المتاخمة للسهل العراقي والتي تشكل تاريخيا وجغرافيا جزء منه، وأنشأها الملك العيلامي (جوكا زنبيل Choga Zanbil)واكتملت في عهد الملك (أونتاش Untash)قرب سوسه أو الشوش عام ١٢٥٠ ق.م. بينما أقدم زقورة في العراق باقية في أور السومرية المخصصة لعبادة الآلة (سن)،تعود الى العام ٣١٠٠ ق.م. لهذا يمكن إعتبار أن ثمة الفيتين وليس عشريتين بين نشوء البنيان بين شقي الثقافتين.

ولا ترقى أقدم الفنون الفارسية الى أبعد من عهد قورش (Cyrus) (549 –529)، وكانت مدينة (برسيبوليس) أو "فارثيا" تعج بالمعماريين والفنانين العراقيين خلال الحقبة الأخمينية ممن أخرجوا ميراث الدهور العراقية مجسدا. فجاءت آثار المدينة الدارسة صنو لمدن وفنون الآشوريين. ولدينا مثال نحت الثور المجنح في ثنايا قصور مدينة (برسيبوليس) تقليدا لثور نينوى،بالرغم من أن الثور لم يكن مقدساً لديهم كما كان الحال لدى الآشوريين، والذي نجد أنصابه في مداخل مدنهم وقصورهم في نينوى وخرسباد وغيرها، بينما كان الفرس يعبدون آلهة أخرى مختلفة ويقيدون النار في معابدهم. ومن الجدير ذكره أن الأثريين الفرنسيين قد وجدوا "مسلة قوانين حمورابي" البابلية ليس في بابل وإنما من عمليات تنقيبهم في مدينة (سوسه) أو (الشوش) الواقعة في الأحواز، بعدما انتزعت من مكانها في بابل إبان حالات المد والجزر بين البلدين.

حضارة الطين

وقد سارت الحضارات الأكدية والكشية ثم البابلية على نفس المنوال البنائي في استخدام الطين كخامة أساسية في البناء،وتطورت خلال الحقب المتعاقبة بسمو المنهج التخطيطي والهيكلي وتكاملت في النسب الجمالية وكفاءة البناء المتعلقة بالجانب الميكانيكي والنوعي وكذلك الوصول الى حالة تنوع متقدمة في المعالجات الفنية،والدقة والضبط في تنفيذ العناصر المعمارية. وقد استعمل الآجر المجفف تحت وهج الشمس أو المحروق بالقمائن في البناء وغطي بالآجر المزجج الملون وأكسيت العناصر الداخلية بطبقة من ملاط الجص.واضطلعت المعابد ببؤرة الحياة الروحية والثقافية والتعليمية والاجتماعية. وفي طرق الثابت الثقافي يردنا نفس المبدأ بعد دهور حينما استقطب المسجد في المراحل الإسلامية مع اختلاف جوهري بقدسية المكان وطبيعة العقيدة.وتكرس هذا العرف في المدن الأولى للإسلام وهي البصرة والكوفة أعوام ٦٣٦ و٦٣٨م ثم بغداد عام ٧٦٢م بعد أن أمست سنة عمرانية في مدن الإسلام اللاحقة.

وفي العمارة الآشورية تحول البناء الى استعمال الحجر الكلسي وهي مادة بناء جيدة كانت وفيرة في جبال (شمال العراق) وأستحدثت عناصر معمارية وظيفية ومنها مثلا بناء (السقوف المزدوجة) أو بيوت (الكلة) المصمته في طوابقها الأرضية،والتي انتشرت في أصقاع كثيرة.واستعمل الحجر الكلسي خاصة في أسس البناء المعرض للرطوبة التي تلحق بالآجر النيئ ضررا كبيرا، واستعانوا بالحجر لبناء أسوار الصروح الملكية. واقتصر استعمال الحجر على وجه الحائط الخارجي وكانوا مقتصدين به،بحيث أسرفوا في استعمال الآجر.وجدير بالذكر أن العمارة الآشورية لم تكن دينية ولم تقم صروح للروح، بقدر عنايتها بالصرحية التي تكرس سطوة واختيال الحاكم، والتي أقتبسها الرومان والفرس تباعا ثم وطأت عمارة المسلمين.

وتعد الحضارة الساسانية الأهم كونها جاءت في نهاية المطاف قبل ورود الإسلام الذي تعمد مؤرخيه الى تعتيم على ما سبقه كونه (جاهلي)،ولاسيما الأرث الآرامي المسيحي خلال ألف عام مثلما حصل بين الرومان وطمسهم لليونان.وأدغمت تلك المساهمة الفعالة في صلب المنتج العربي الإسلامي. لذا اقتطعت حلقة مهمة من حلقات التاريخ الحضاري العام والعراقي الخاص.وفتح الأمر شهية الغربيين في نسب كل ماهو إسلامي في العراق الى ساسان وفي الشام الى بيزنطة،كونهم وبصفاقة وسذاجة (آريين)!.

طيسفون

ونلفت النظر إلى أن الساسانيين لم يكن لهم صلة بفارس البته فلغة دواوينهم كانت الآرامية العراقية وعاصمتهم طيسفون أو المدائن الواقعة على تخوم بغداد(سلمان باك). وعمارتهم محض سياقات للعمارة الرسوبية العراقية وأن أبعد أثر لهم لايتعدى رمية أميال عن الحدود السياسية الحالية،وأن مكوثهم في التاريخ لم يتعدى الأربعة قرون وهو غير ذي شأن أمام أربعين قرنا سابقة لهم من المنتج الحضاري المحلي.ويؤكد الأمر المصري الدكتور فريد الشافعي، ويحدد آثار منطقة بايكولي (Paikuli)التي فيها اثر للملك نارسي (Narse)ويؤرخ لسنة ٢٩٤م أو أبعد من ذلك في قصر شيرين وكذلك (سرفستان) و(فيروز أباد) او (سوس) في (الأحواز) وكذلك في (دستجرد) وكل هذه المدائن متاخمة للحدود العراقية ولم يأت ذلك اعتباطا. وكذلك الآثار داخل العراق في منطقة (الأحيمر) او (كيش) وتقع جنوب المدائن (طيسفون) العاصمة الكبرى للساسانيين،وكذلك آثار الحضر وأشور في منطقة الجزيرة وكذلك مدينة الحيرة التي خرجت الكوفة فسيلة لها والنجف فسيلة للكوفة. ويقول الدكتور الشافعي لهذا السياق: (لم تمكث فارس في مكان القيادة إلا أكثر قليلا من قرنين في العصر الأخميني (٥٥٠-٣٣١ ق.م)،ثم عادت بلاد العراق بعد تلك الفترة الى مكانتها القيادية السابقة وذلك منذ بداية العصر السلوقي).ويقول الكونت (دي جوبينو): (إن الإيرانيين لم يبتكروا شيئاً جديداً في الفنون، فسواء أكان في عصر الأخمينيين أم عصر الإشكانيين أم بعد ذلك عصر الساسانيين وحتى في العهد الإسلامي لم يكن للفرس طراز أو فن خاص بهم . بل إنهم اقتبسوا من غيرهم من الأمم، وأمكنهم في النهاية أن يخرجوا من هذه الأذواق فنّا نطلق عليه الفن الفارسي). ويستخلص الدكتور فريد الشافعي في هذا السياق ثلاث معطيات جوهرية في فهم إشكالية التداخل بين الأرث الفارسي والعراقي وهي:

١- أن العمارة الأخمينية التي سبقت العهد الفارثي والتي وجدت آثارها في فارس هي من أصول مشتقة من التقاليد والأساليب الآشورية القديمة التي موطنها العراق.

٢- إن العمارة الفارثية التي لم يعثر على أمثلة منها خارج أراضي العراق إلا ما ندر، متناثرا في الأجزاء الغربية من بلاد إيران المتاخمة للعراق.

إن الآثار الباقية من العمارة الساسانية تتركز بصفة خاصة في منطقة العراق،بينما يوجد القليل منها في فارس بل معظم هذا القليل يقع متاخماً.

أن القصور الفارسية التي أرساها ملوك أعجبوا بالروائع التي شاهدوها في العراق ومصر وآسية الصغرى. وكانت هذه العمارة وليدة هوى الملوك وليس لها أصول في بلادهم بما تفرضها طبيعة أرضها، أو متطلبات العيش على هضبة فارس الجبلية. لذا فقد اندثرت عمارتها مع الاخمينيين. لكنه الى جانب هذه العمارة كان ثمة أخرى أقتبسها سكان البلد، ولازمتهم من منابع الحضارة في سومر، على غرار الكلدانيين والآشوريين، حيث تعرفوا على المساكن المعقودة الصالحة لوقايتهم من حرارة الشمس المحرقة، فقد شيدوا ولا سيما في مقاطعات الأحواز (Susianمنازل ذات سقوف تحملها عوارض من جذوع النخيل، وحصر من سعف النخيل أو الصفصاف،حيث وضعت فوق غرف ضيقة، أشبه ما تكون بالممرات، كما في السنن البنائية العراقية.

العقد.. القبة

ويذكر المؤرخ اليوناني (أسطرابون ٦١ق.م-١٥ م) في سياق وصفه للأحواز: (لحماية المساكن من وهج القيظ، كانت السقوف تغطى بذراع (٥٠ سم) من التراب. وكان ثقل هذا التراب يفرض بناء جميع المنازل ضيقة مفرطة في الطول، ولو كانت الغرف متسعة لاختنق ساكنوها).ويذكر عالم الآثار الفرنسي (أرنست بابلون): (ولما كانت شروط البلاد المناخية، اليوم كما كانت عليه في الماضي، فطريقة البناء الحالية هي الطريقة عينها، التي استعملها سكان إيران الأقدمون. ويصادف المسافر منازل تختلف باختلاف ثروة أصحابها، وقد علتها قباب وعقود وسطوح وفق المتطلبات المحلية. فمن الأكيد أن الإيرانيين الذين عاصروا الأخمينين عرفوا، العقد والقبة بعد جيرانهم على ضفاف دجلة). وهو ما ذهب إليه المستشرق (ديولافوا) الذي قال(نصادف اليوم عقودا معرشة، وعقودا مثلثة، في عقود كنائسنا القوطية في القرن الثالث عشر، وهي سيان مع عناصر الهندسة الاهوازية والبيزنطية).وبذلك فلم يكن للفرس أي حضارة ذو قيمة قبل القرن السادس قبل الميلاد باعتراف الجميع وهو موعد متأخر مع التاريخ، وأصبح اليوم من بديهيات البحث العلمي.

وثمة حقيقة أن كثير من القوى العالمية البانية للحضارات تكون ذات صبغة عسكرية أكثر من كونها منتجة للفكر والعمارة،فاليونانية مثلا كانت مثقفة كما الإسلامية،بينما الرومانية كانت سياسية وتجارية. والحل ينطبق على الدول الإيرانية التي ظهرت كقوة عسكرية تتطلع للانقضاض على العراق دائما، بسبب خصبة أو إمتلاكه محطات خط الحرير التاريخي،وهو جوهر خلافهم المزمن مع الرومان.وهكذا كانت دول إيران سياسية وتجارية أكثر من كونها مثقفة تعتني بالتدوين وعمران المدن والعمارة والفنون. ويعلق على ذلك د.نجيب ميخائيل إبراهيم (تفوق الفرس في ميدان الحروب ولكن أعوزتهم الثقافة والحضارة التي كانت للشعوب التي غلبت على أمرها)

تنوع معماري

ولا بد أن نشير الى أن إيران كانت مثل الشام تسبغ خصوصية وموائمة على العناصر الراسخة القادمة من عهود وحضارات أقدم، حيث أن وفرة خامة الخشب الغابي في البيئات الشمالية من فارس، جعلها تستغله في تجسيد عناصر كانت أساسها من الآجر(الطابوق) كما الأعمدة في أصفهان وتبريز أو القباب في قزوين ونيسابور. مع إقرارنا أن الجنوب الإيراني مكث أمينا على العناصر الأولى وطيني المشرب بسبب شحة الغابات مثل العراق، وتجسد في مدائن شيراز وأزد وبستك.وبسبب وسع رقعة إيران الجغرافية. فشتان بين عمارة شماله البارد وجنوبه الإستوائي والشبه صحراوي. حيث نجد المساقط المتضامة ووسع تداول خامة الخشب في الشمال يقابلها مساقط منفتحة ومهواة وشيوع لخامة المدر ومنتجها وعناصرها لدى عمائر أهل الجنوب،تماما كما هو الفرق بين العمارة الأشورية والبابلية، أو عمارة الموصل والشمال العراقي عن بغداد والبصرة.

وجدير تلمس فضل فارس بمكوثها الحافظة الأمينة على أرث العراق حينما يتعرض للدمار والكوارث. وتستثمر فارس فترات الإرتقاء الحضاري للعراق كما حدث إبان بابل الأولى ثم آشور وبابل الثانية، ثم الحقبة العباسية في الإسلام، لتكتسب الكثير،وتختزنها،ثم تعيدها تباعا ليستفيد منها العراق، بعد أن تبعث به الحضارة من جديد. وخير مثال على ذلك العمارة الصفوية التي عمت في القرنين السادس والسابع عشر، وأتسمت بخصوصية،وأنتجت أوابد ومعالم رائعة،كما في أصفهان، والتي نلمس مددها قد شمل العتبات المقدسة في العراق. وجدير بالرصد أن جل عناصر العمارة (الصفوية) هي عراقية المنشأ والروح، بيد أنها استرسلت ونأت عن الأصول وأصبحت(طراز) يطبق دون لبابة أو عضوية في طياته، بقدر تقليده لعناصر موروثة.

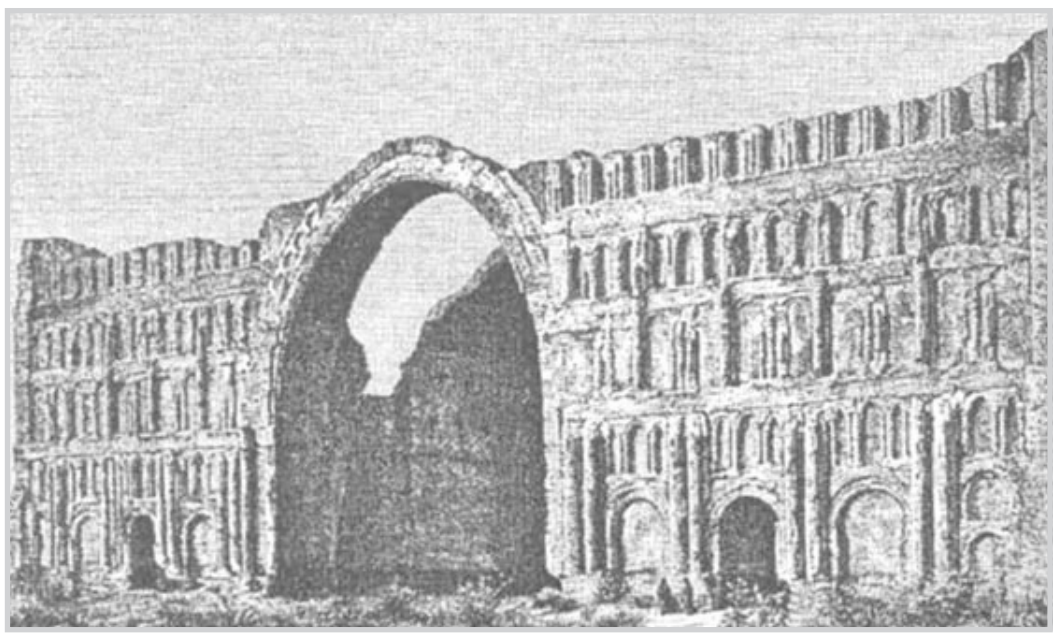
طيسفون أو المدائن الواقعة على تخوم بغداد(سلمان باك)

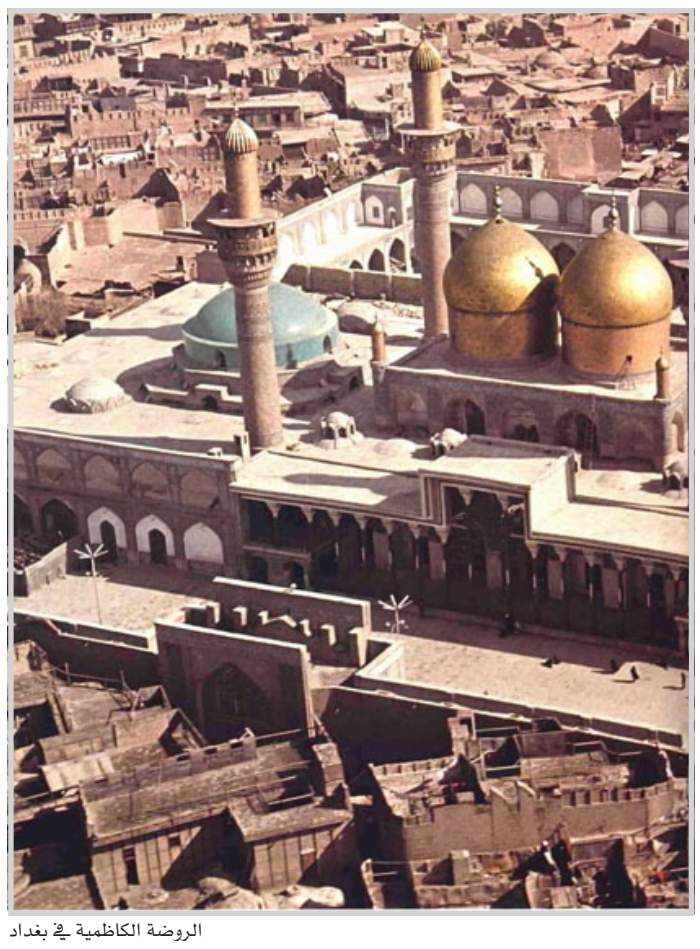
الروضة الكاظمية في بغداد

زقورة اور

متابعة

دار المأمون تقيم معرضا للكتاب في وزارة حقوق الانسان وكلية اللغات والفلوجة

تستعد دار المأمون للترجمة والنشر أحدى دوائر وزارة الثقافة للمشاركة في الاحتفالية التي تنظمها وزارة حقوق الإنسان للفترة من ٩-١٣/ من شهر كانون الأول المقبل.

وقال مصدر من الدار انه تم تهيئة الكتب للمعرض الذي يقام في المناسبة والذي يضم عدد من إصدارات الدار الثقافية والسياسية والعلمية إضافة إلى إعداد من المجلات الفصلية مثل مجلة المأمون باللغة العربية تعنى بالدراسات والبحوث ومجلة كلكامش باللغة الإنكليزية تعنى بثقافة الأدب العراقي المعاصر ومجلة بغداد باللغة الفرنسية ثقافية عامة في الأدب والاجتماع. كما تقيم معرضاً للكتاب في أروقة كلية الآداب نهاية الشهر الحالي .

وسيضم المعرض عدداً من الكتب العلمية والثقافية والسياسية التي تصدرها الدار باللغات العربية والإنكليزية والفرنسية والألمانية إضافة إلى إعداد من مجلات المأمون وكلكامش وبغداد والتي تتناول مواضيع ثقافية سياسية علمية متنوعة تشبع رغبة المطلع والقارئ في كافة المجالات.

ستشارك دار المأمون للترجمة والنشر في المعرض الذي يقام في البيت الثقافي في مدينة الفلوجة للفترة من ٢٧-١١ ولغاية ٢٧-١٢-٢٠٠٧ .

وقال مصدر مخول من الدار انه انطلاقاً من العمل الدؤوب لإدامة النشاطات الثقافية وجعلها حلقة وصل بين الوزارة والمطلع المهتم بشؤون العلوم والثقافة فقد أعدت الدار إصداراتها من الكتب الثقافية والعلمية والسياسية وعدد من المجلات العربية و الإنكليزية والفرنسية التي تعنى بالأدب والثقافة المعاصرة لعرضها في المعرض الذي سينضم بالمناسبة خدمةً للقارئ وغايةً لإيصال المعرفة ومواكبة التطور في كافة الميادين.

الهبوط الى أرضين

عبد الله حسين جلاب

تشكيلات الماء

في شجر أزرق ومن المحار
شيده الماء..
شبابيكه هياكل الأسماك
تطل على الورد :
شباك الحبق
شباك القرنفل
شباك المنثور
شباك الرازقي
شباك الأقحوان
شباك الفل
و شباك ملكات الليل !
في عشب الفراشات شجره:
شجرة الببغاء
شجرة البلبل
شجرة الشحرور
شجرة الخطاف
شجرة الهدهد
شجرة النقار
و شجرة البجعة !
الزرقاء المختلفة الأغصان
دوحته :
غصن التوت
غصن البلوط
غصن الكرز
غصن الخوخ
غصن الفستق
غصن النبق
و غصن اللوز !
تتدلى من حفيفها
درة الأعماق !
موجة بألسن وجناحين
بوابته :
لسان الديك
لسان طير الحب
لسان الزنبق
لسان النرجس
لسان الموز
لسان التفاح
ولسان الكمثرى !
رذاذ على بقايا الصخور
زمانه ..
المترامي الرؤيا
في السواحل و المجاهل
و الأبعاد
السرمدي المتسائل
طيره :
اجفل الحمامة ذاك
كهوفه الألسن :
لسان القرد
لسان الخنزير
لسان الثور
لسان الفيل
لسان النملة
لسان الجني
ولسان العنكبوت ؟
في التراب المحروق
شجرته السوداء تلك
تتدلى من أعوادها
الحرباء ؟
ريشة حمراء
ريشة خضراء
ريشة صفراء
ريشة زرقاء
ريشة سوداء
ريشة بيضاء
وريشة بقعاء :
على انطفاء حجارته
الطاووس ؟
مدونات لحوريّته..
على الدوحة الزرقاء :
مدونة الفز
مدونة الماء
مدونة اللبلاب
مدونة الصخر
مدونة الحنظل
مدونة البطريق
ومدونة النار !